مناجاة "زكريا" ربه واعتكافه شاكرا رزقه ولد "يحيى" نبيا

قال تعالى (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: 2]؛ هو افتتاحُ الكلامِ المفَسِّر، وإن سبقَته فواتحُ السورة التي لا تخلو من حكمةٍ بالغة. ومفادُ الآية أن الله تعالى شمل برحمته عبده زكريا عليه السلام، وقد بلغ من الكبر عتيّاً. قال ابن عاشور (ذِكْرُ) خبر لمبتدأ محذوف ، وتقديره : (هذا ذكر) ، وهو بمعنى: (اذكر)[1] .

والمعنى: هذا الذي نقصُّه عليك في القرآن الكريم ـــ يا نبينا ـــ ليكون برهاناً ساطعاً على نبوتك، هو ذِكرُ رحمةِ ربِّك بعبده زكريا؛ حين وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيباً، وكانت امرأته عاقراً لا تلد. فابتهل إلى ربه راغباً في الولد، لا حظّاً للنفس أو شهوةً، بل غيرةً على الدين، وحرصاً على امتداد الدعوة؛ إذ لم يجد في بني عمومته ومواليه كفؤاً يحمل راية النبوة والرسالة من بعده[2].

.

وهنا تتجلى رحمةُ الله بعبده المؤمن؛ إذ جعل همَّه عند الكِبر معقوداً على توريث الدعوة، لا على التشبث بالدنيا عند دُنوّ الأجل، مما يدل على أنه أحبَّ لقاء الله ولم يركن إلى البقاء. وهو بذلك يخالف طبع البشر الذي بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ»[3]. وقد علّق ابن الجوزي على هذا المعنى بقوله: «لما كان أحبَّ الأشياء إلى ابن آدم نفسُه، أحبَّ بقاءها؛ فأحبَّ العمر، وأحبَّ سببَ بقائها وهو المال. والهرمُ إنما يعمل في بدنه لا غير، فإذا أحسَّ بقرب التلف عند الهرم، قويَ حبُّه للبقاء؛ لعلمه بقرب الرحيل وكراهيته له) [4]

قوله (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا) (3) إنّ استشعار قُرب الله جلّ وعلا من قلب عبده هو مبعث الأدب في مناجاته، وأصل السكينة في دعائه؛ فكلما تيقّن المؤمن بحضور الرقيب الأقرب إليه من حبل الوريد، خفض جناحه، وأسرّ بنجواه، مستهجنًا رفع الصوت في مقامِ مَن يَعلم السرّ وأخفى.

---

[1]) التحرير والتنوير ج 16 ص 8
[2]) أيسر التفاسير للجزائري مع تعديل الصياغة
[3]) رواه مسلم ج5 ص 261 رقم 1736
[4]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 831

وفي بيان هذا الأدب، قال ابن جزي : (أخفاه؛ لأنه يسمع الخفي كما يسمع الجهر، ولأن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء»[5]، وهذا «يدل على أن أفضل الدعاء ما هذه حاله»[6]. كما لفت ابن عجيبة إلى هذا المعنى بقوله: «راعى عليه السلام حسن الأدب في إخفاء دعائه) [7].

وإلى جانب الأدب والإخلاص، أشار ابن القيم إلى أثر استحضار القرب الإلهي في سلوك الداعي، فقال: «كلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصوّر ذلك؛ أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأتَّ له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفيّ كلامه فبالغ في رفع الصوت، استُهجن ذلك منه) [8].

فحين يتجلّى للعبد جلال القرب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، يذوب في قلبه جفاء البُعد، ويتحوّل دعاؤه إلى همسٍ يملؤه الحياء؛ لعلمه أن الذي يقصده ليس بغائبٍ فيُستدعى، ولا بأصمّ فيُنادى بصياح.

كما أن لسرّية الدعاء أثرًا عمليًا في العبادة، إذ نوّه ابن تيمية بأنها أجمعُ للهمّة وأدعى لديمومة المسألة؛ ذلك أن مناجاة الخفاء تُبقي على طاقة اللسان ونشاط الجوارح، فلا يدركها الملل ولا يمسّها الوصب، بخلاف الجهر الذي يستنزف القوى ويقطع حبل الاستمرار سريعًا، تمامًا كالقارئ الذي يُجهد صوته بالتكرار فلا يقوى على الإطالة، بينما ينساب مَن خفض صوته في نهر القراءة دون انقطاع[9].

وبمثل هذا الهدي أدّب النبي ﷺ أصحابه حين ارتفعت أصواتهم بالتكبير، فناداهم برفق: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»؛ أي (ارفقوا بأنفسكم، وهونوا عليها، واخفضوا أصواتكم) ، مرسخًا فيهم معاني القرب الإلهي، ومذكّرًا إياهم بأنهم يرجون سميعًا بصيرًا لا تحجبه المسافات، ولا تخفى عليه خفقات القلوب.

فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ **فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ)[10]

وفي قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4] تتجلى أسمى معاني التذلل والافتقار بين يدي الخالق سبحانه؛ إذ استهل نبي الله زكريا –عليه السلام– مناجاته بإظهار ضعفه البشري وانكساره التام، مستجلبًا بذلك رحمة الله وعطفه، ومعلنًا انقطاع رجائه من أسباب الدنيا الفانية. وهذا من رفيع أدب الدعاء؛ أن يبث العبد شكواه، ويفصح عن حاجته، ويُظهر مدى فاقته إلى مولاه، فكلما تقدم بالإنسان العمر، ازداد يقينًا بضعفه وتجردًا لربه. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[11]؛ إذ إن بلوغ الستين هو دُنوٌّ من معترك المنايا، وموسم الإنابة الصادقة، والرجوع الخالص إلى الله، وترقب لقاء الآخرة[12].

ويزداد المشهد جلالًا حين ندرك أن زكريا –عليه السلام– لم يكن من أولئك الذين يشقون بطلب حطام الدنيا والتعلق بزخرفها، على خلاف ما جُبلت عليه طباع أكثر البشر؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ

---

[5]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 970
[6]) أحكام القرآن للكيا الهراسي ج4 ص 1
[7]) البحر المديد ج3 ص 446
[8]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 382
[9]) مجموع الفتاوى ج15 ص 17
[10]) رواه البخاري ج10 ص 169 رقم 2770
[11]) رواه البخاري ج20 ص 44 رقم 5940
[12]) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 338 مع تعديل الصياغة

اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ»[13]. أما نبي الله زكريا، فلم يأبه في كبره بمتاع الدنيا الزائل، بل انصرف همّه كله إلى شؤون آخرته، وحمل رسالة السماء، وتوريث دعوته لمن يحمل لواءها من بعده. ولأن مقاصده كانت خالصة لوجه الله ومرتبطة بعمل الآخرة، فقد ألف الإجابة وعوّده ربه العطاء، متحليًا بذلك بأدب النبوة الرفيع، مترفعًا عن حرص الأقران الذين يزدادون تعلقًا بالدنيا كلما تقادمت بهم السنون، فيشقون بها وبتبعاتها.

ومن تمام الأدب في مقام الدعاء، ألا يقع العبد في شقاء الاستعجال، فيملّ الانتظار أو ييأس قائلًا: قد دعوت فلم يُستجب لي؛ إذ حذّر النبي ﷺ من ذلك بقوله: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[14]. بل ينبغي للداعي أن يُديم قرع باب مولاه بالإلحاح وحسن الظن، متوسلًا إليه بسابق فضله وجميل عوائده؛ وكما قرر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في معنى الآية: «إنه دعاء المسألة، والمعنى: أنك عوّدتني إجابتك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه –سبحانه وتعالى– بما سلف من إجابته وإحسانه، وهذا ظاهر هاهنا[15].

وفي قول (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا) [مريم: 5]، تتجلّى أسمى معاني التضرع والافتقار إلى الله، ممزوجةً بصدق النية وتجريد المقصد؛ إذ يقدّم زكريا بين يدي سؤاله عذرًا يبرّئ فيه نفسه من حظوظ الدنيا وشهواتها، مبينًا لربه أن طلبه للولد الصالح لم يكن بدافع الفطرة البشرية فحسب، بل كان بدافع الغيرة على دين الله والخشية عليه من الضياع. لقد نظر بعين البصيرة إلى من حوله من الموالي والأقارب، فلم يرَ فيهم من يملك الأهلية لحمل أمانة الرسالة أو الحفاظ على شرائع الدين ونظامه من بعده، فتملّكته الخشية من أن تضيع معالم الشريعة في أيديهم[16].

ومن هنا، تاقت نفسه إلى أن يمنّ الله عليه بوارثٍ صالح، ليكون غرسًا طيبًا يورثه العلم والدين، ويستنّ بذلك سنةً حسنةً يجري له أجرها، ويستمر بها نفعها في الأجيال القادمة. ورغم يقين زكريا التام بأن الله متكفّل بحفظ دينه به أو بغيره، وبعقبه أو بسواهم، إلا أنه طمع في كرم الله وفضله أن يجعله سببًا ومفتاحًا لهذا الخير، فينال بذلك شرف البلاغ وعظيم المثوبة.

ولم تقف الأسباب المادية حائلًا بين قلب زكريا وبين رجائه في ربه؛ فرغم أن امرأته عاقر لا تلد، وقد بلغ هو من الكبر عتيًّا حتى وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبًا، إلا أن قلبه ظلّ معلقًا بمسبب الأسباب لا بالأسباب ذاتها. لقد أدرك ببصيرته أن الأسباب ما هي إلا سننٌ كونية نتعبد الله بالأخذ بها، أما القدرة المطلقة فهي بيد الله وحده، الذي يفيض برحمته على عباده متى شاء، وكيف شاء، وبلا سبب، فسبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ولما صدقت نية زكريا، وخلصت دعوته لوجه الله وخدمة دينه، استجاب الله له ووهبه "يحيى"؛ ليكون امتدادًا لرسالته وسببًا في استمرار عمله الصالح بعد انقضاء أجله. وهنا تتجلى حكمة عظيمة؛ فطلب الولد الصالح هو في حقيقته طلبٌ للجنة وسعيٌ لنيل رضوان الله، مصداقًا لقول النبي ﷺ : «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[17]. وهكذا تتنوع سبل الدعاء وطلب الجنة؛ فتارةً يسألها العبد صراحةً، وتارةً يسأل الله التوفيق لأسبابها من الأعمال الصالحة التي تبلّغه إياها.

ويؤكد هذا المعنى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قال: أتشهد، ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي صلى الله عليه

---

[13]) رواه البخاري ج20 ص 46 رقم 5942
[14]) رواه البخاري ج19 ص 416 رقم 5865
[15]) مجموع فتاوى ابن تيمية ج3 ص 233
16) أبو القاسم الحسين بن محمد : المفردات في غريب القرآن ج1 ص 162
[17]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 28 رقم 38 ورواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084 وذلك في معرض قوله ﷺ (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ)

وسلم: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[18]. وقد علّق الحافظ ابن رجب رحمه الله على هذا الحديث بقوله: "وهذا يشعر بأنه يجوز الدعاء بمصالح الآخرة بأي لفظٍ كان"[19]؛ لتبقى الغاية الأسمى هي صدق التوجه إلى الله، واستحضار معاني الآخرة في كل ما يطلبه العبد من ربه.

قوله (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) (6) يجدر التنويه إلى أن الأنبياء ليس لهم مال يجوز توريثه ، فأموالهم صدقة للناس ، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ وَالْعَبَّاسَ عَلَيْهِمَا السَّلَام أَتَيَا أَبَا بَكْرٍ يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمَا حِينَئِذٍ يَطْلُبَانِ أَرْضَيْهِمَا مِنْ فَدَكَ وَسَهْمَهُمَا مِنْ خَيْبَرَ فَقَالَ لَهُمَا أَبُو بَكْرٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ)[20].

إذن تمنى زكريا على الله تعالى أن يهبه ولد يرث العمل الصالح منه ، فيظل عمله مستمرا بعد موته ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا)[21]، وفي رواية (إذا مات العبد انقطع عنه عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)[22].

وفي قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 6]، يسترسل زكريا -عليه السلام- في مناجات ربه، كاشفاً عن الغاية السامية والدافع الأسمى وراء سؤاله الولد؛ ليكتمل بذلك عقد دعائه بالثلاث، امتثالاً لهدي النبوة الذي نقله ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ : «**كَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا**»[23].

وقد انتظم هذا الدعاء في ثلاث مرات ؛ استهلها بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ توطئةً وتمهيداً بين يدي الرجاء، ثم ثنّى بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ إفصاحاً عن جوهر المطلوب، ليختم بالثالثة في قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ تطلعاً لأن يقرّ الله عينه بثمرة الإجابة وكمال العطاء. وبين كل مرة وأخرى، كان يبسط بين يدي خالقه دواعي الرجاء وبواعث الضراعة؛ فصوّر ضعفه، وقدّم أمله، وبثّ مخاوفه، ثم رفع حاجته[24].

وتتجلى الغاية الأخيرة من هذا الابتهال في أن يرزقه الله ولداً تتحقق فيه معاني الرضا، ليكون عبداً مرضياً عند ربه وراضياً بقضائه. فالرضا هو نقيض السخط، وهو الباب الأعظم لتحقيق العبودية الحقة لله؛ ولذلك قيل: «فمن لم يرضَ بقضاء الله، ولم يصبر على بلاء الله، فكيف له أن يكون عبداً لله؟»[25]. وقد أرسى النبي ﷺ هذا الأصل بقوله: «وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، **فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا**، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[26].

إذ **لا منزلة وسطى بين الرضا والسخط**؛ فمن لم يستسلم لقضاء الله وقدره راضياً، فقد وقع في دائرة السخط، وسخط العبد على أقدار الله يناقض تمام الإيمان ويستلزم سوء الظن بالخالق، بل هو ضربٌ من منازعة الرب -سبحانه-

---

[18]) رواه ابن ماجة ج 11 ص 301 رقم 3837 وصححه ابن ماجة ج2 ص 328 رقم 3103
[19]) فتح الباري لابن رجب ج5 ص 189
عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يُقَالُ لَهُ سُلَيْمٌ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَأْتِينَا بَعْدَمَا نَنَامُ وَنَكُونُ فِي أَعْمَالِنَا بِالنَّهَارِ فَيُنَادِي بِالصَّلَاةِ فَنَخْرُجُ إِلَيْهِ فَيُطَوِّلُ عَلَيْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ لَا تَكُنْ فَتَّانًا إِمَّا أَنْ تُصَلِّيَ مَعِي وَإِمَّا أَنْ تُخَفِّفَ عَلَى قَوْمِكَ ثُمَّ قَالَ يَا سُلَيْمُ مَاذَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ النَّارِ وَاللَّهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَلْ تَصِيرُ دَنْدَنَتِي وَدَنْدَنَةُ مُعَاذٍ إِلَّا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَنَعُوذَ بِهِ مِنْ النَّارِ ثُمَّ قَالَ سُلَيْمٌ سَتَرَوْنَ غَدًا إِذَا الْتَقَى الْقَوْمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ وَالنَّاسُ يَتَجَهَّزُونَ إِلَى أُحُدٍ فَخَرَجَ وَكَانَ فِي الشُّهَدَاءِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَرِضْوَانُهُ عَلَيْهِ (رواه أحمد ج34 ص 307 رقم 20699)
[20]) رواه البخاري ج20 ص 447 رقم 6230
[21]) رواه مسلم ج13 ص 181 رقم 4843
[22]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 28 رقم 38 ورواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084
[23]) رواه مسلم ج9 ص 275 رقم 3349
[24]) في هذا المعنى : في ظلال القرآن ج5 ص 89
[25]) مثله في شعب الإيمان للبيهقي ج1 ص 218 رقم 200 ، والمعجم الكبير للطبراني ج22 ص 320 وغيره ، وهو أثر ضعيف إذا روي كحديث قدسي
[26]) رواه الترمذي ج8 ص 415 رقم 2320 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 396

في اختياره وتدبيره؛ إذ يختار الله أمراً ويرتضيه لعبده، فيأباه العبد ولا يرتضيه، وذلك عين التنافي مع جوهر العبودية ومقتضاها[27].

في قوله ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7]، تتجلّى منزلةٌ رفيعةٌ خصَّ الله بها نبيَّه يحيى عليه السلام؛ إذ سماه بنفسه قبل أن يُبصر النور، ولم يَكِل تسميته لأبيه، وفي ذلك منقبةٌ جليلةٌ أشار إليها العلّامة الشنقيطي[28]. وقد استنبط الشيخ محمد متولي الشعراوي لطيفةً بديعة من دلالة هذا الاسم؛ فسُمِّي «يحيى» ليكتب الله له الحياة الأبدية، إذ مضى شهيدًا في سبيل الله، والشهيد حيٌّ يُرزق عند ربّه[29]، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: 169).

وحول واقعة استشهاده عليه السلام، يوضح الشيخ محمد صالح المنجد أن تفاصيل مقتله وكيفيته لم ترد في نصٍّ قرآني ولا في حديثٍ مرفوعٍ صحيح إلى النبي ﷺ ، غير أن الخبر قد شاع واستفاض بين الصحابة والتابعين، وتناقلته الآثار التاريخية[30]. ومن ذلك ما رُوي عن منصور بن صفية عن أمه، حين دخل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المسجد وابن الزبير مصلوب، فأقبل على السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما يواسيها ويُذكّرها بالصبر قائلًا: «إن الجيفة ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاصبري واحتسبي»، فأجابته بيقينٍ راسخ: «وما يمنعني من الصبر، وقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل!) [31].

وتُفصّل الروايات سبب تلك الفاجعة؛ فقد روى هشام بن عروة عن أبيه أن يحيى بن زكريا ما قُتل إلا بسبب امرأةٍ بغيٍّ اشترطت على صاحبها ألا ترضى عنه حتى يأتيها برأسه، فذبحه وقدّمه لها في طست[32]. كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عيسى عليه السلام بعث يحيى في اثني عشر من الحواريين يُعلّمون الناس شرائع الدين، فكان مما نهوا عنه نكاح ابنة الأخ، وكان لملكهم ابنة أخٍ أراد الزواج منها، وكانت تطلب منه كل يومٍ حاجةً فيقضيها لها، فلما علمت أمها بذلك أوعزت إليها أن تطلب ذبح يحيى بن زكريا، فلما سألها الملك حاجتها أصرّت على هذا المطلب، فحاول ثنيها فأبت، عندئذٍ استدعى يحيى وطلب طستًا فذبحه[33].

ورغم فداحة هذا المصاب، فإن سنة الله في حفظ دينه ماضيةٌ لا تتبدّل؛ فقد صان الله رسالته وأورثها لمن بعده، فالدين باقٍ وإن رحل حمَلَته، ينقله الله إلى أجيالٍ أخرى تصون الأمانة وتُبلّغها للناس، بينما تظل دماء الشهداء حُجّةً قائمةً لله على عباده.

وعلى جانبٍ آخر، نال نبي الله زكريا عليه السلام الجزاء الأوفى على صبره واحتسابه في فقد ولده، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ : «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟

---

[27]) في هذا المعنى : مجلة جامعة أم القرى ج5 ص 409
[28]) أضواء البيان للشنقيطي ج3 ص 367
[29]) تفسير الشعراوي ج1 ص 4244
[30]) https://islamqa.info/ar/answers/470412/
31) ابن أبي شيبة في "المصنف" (533/17) بسند رواته ثقات ، وصححه محققو المصنف
32) ابن أبي شيبة ، في "المصنف" (533/17)، بسند رواته ثقات.

33)الطبري في "التاريخ" (586/1) بسند ظاهره الحسن

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ) [34].

وفي قوله : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]، تتجلى لحظةٌ إيمانيةٌ آسرة؛ إذ لم ينطق زكريا عليه السلام بهذا التساؤل عن شكٍّ في قدرة الخالق، وهو العارف يقينًا أن الأسباب الدنيوية تتلاشى أمام مشيئة الله الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون. وإنما كان نداءً يفيض دهشةً وانبهارًا، واستشرافًا شغوفًا لمعاينة الكيفية التي ستُنسج بها خيوط هذه المعجزة، وتتسخر لها الأقدار؛ إذ كيف تُزهر الحياة في رحم امرأةٍ لم تعرف الإنجاب قط، وفي جسد شيخٍ بلغ من الكِبَر عِتيًّا، فوهن عظمه وتبددت قواه؟

لقد كان سؤال العبد المندهش من عظمة العطاء، المتشوّق لاستكشاف مسالك القدرة الإلهية؛ أهي أسبابٌ واهنةٌ سيبعث الله فيها الروح والقوة، أم هو خرقٌ تامٌّ لنواميس الكون يأتي بالولد من غير سببٍ مألوف، كما يُنشئ الله الخلق من العدم؟

وقد أشار الإمام الطبري إلى هذا المعنى العميق مبيّنًا أن تساؤل زكريا كان استكشافًا لوجه هذه البُشرى: هل سيعيد الله إليه فتوة الشباب ويُصلح من شأن زوجته العاقر لتلد على وفق السنن المعتادة[35]، أم أن الولد سيأتي هبةً ربانيةً خالصةً تتجاوز حدود الأسباب؟ وهنا تكمن المفارقة البديعة؛ فقد كان زكريا هو الداعي السائل، ثم غدا هو المتعجب المبهور حين فاجأته الإجابة بعطاءٍ يفوق تصور البشر.

وهو ما أكده ابن كثير؛ إذ أوضح أن هذا التساؤل إنما هو تعجّبُ فرحٍ غامرٍ واستبشارٍ عظيمٍ حين أُجيبت دعوته، فراح يستجلي كيفية مجيء هذا الغلام، وقد اجتمعت موانع الإنجاب كلها؛ امرأةٌ عاقرٌ شاخت ولم تلد قط، وشيخٌ جليلٌ بلغ من الكبر مبلغًا نَحَل معه عظمه وانقطعت أسباب الولد لديه، فجاءت البُشرى لتُثبت أن القدرة الإلهية لا تحدّها قوانين الطبيعة ولا قيود الزمن[36].

قوله (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) (9) جاء الردّ الإلهيّ مطمئنًا ومبشّرًا؛ إذ يَعِدُه الحقُّ سبحانه بهبةِ الولدِ عبر إنفاذِ الأسبابِ الواهية وبثِّ الحياةِ فيها. وما هذا الحدثُ الجليل إلّا آيةٌ تتجدّد مع كلِّ صرخةِ وليدٍ يبصر النور؛ فالميلادُ في جوهره معجزةٌ قائمةٌ بذاتها، ففيمَ الدهشةُ والعجبُ من معجزةٍ تحاكيها في الإيجاد والإبداع؟

ويأتي التذكيرُ الإلهيّ الحاسم: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، ليرسّخ سنّةَ الله في الكون؛ فهو سبحانه يُجري خوارقَ العادات مقرونةً بأسبابها. فهذا كليمُ الله موسى يُلقي عصاه فتسعى ثعبانًا مبينًا، ويضرب بعصاه عبابَ البحر فينفلق كالطودِ العظيم؛ إشارةً ربّانيةً إلى أنَّ السعيَ البشريّ — مهما بدا ضئيلًا — هو المفتاحُ الذي تتنزّل عنده المعجزات، مصداقًا لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾. وهكذا تبقى القدرةُ الإلهيةُ طليقةً لا يحدّها قيد؛ تخلق بالأسباب تارةً، وتبدع من العدم المحض تارةً أخرى

---

[34]) رواه الترمذي ج4 ص 154 رقم 942 وصححه الألباني : صحيح سنن الترمذي 21/3 رقم 1021، السلسلة الصحيحة ج 3ص 398رقم 1408
[35]) تفسير الطبري ج18 ص 149
[36]) تفسير ابن كثير ج5 ص 214

في قوله :﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، يتجلى شوق العبد الأوّاب إلى استشعار بشائر الإجابة؛ فقد ضرع إلى ربه أن يجعل له أمارةً تلوح في الأفق، تنبئه بقرب وقوع المعجزة وتنزل الفرج، **ليتهيأ قلبه لاستقبال هذه البشرى، ويستجمع جوارحه للقيام بحق الشكر للمنعم** سبحانه دون تقصير؛ إذ أراد أن يرتشف حلاوة النعمة منذ بواكيرها الأولى.

فجاءه الجواب الإلهي رابطًا بين أمارة المعجزة وبين الانقطاع التام لشكرها؛ وكأن الله يرشده إلى أن هذه المنة العظيمة تستوجب خلوةً خالصةً للحمد والثناء. فكانت الآية أن يُحبس لسانه عن مخاطبة البشر ثلاث ليالٍ متتابعات وهو في تمام صحته وعافيته؛ حبسًا قهريًا باختيار الله لا بقدرته، ليتفرغ محرابه لذكر الله ومناجاته. وفي ذلك حكمة بالغة؛ إذ إن الخوض مع الناس في أمرٍ غيبيٍّ لم تكتمل فصوله بعدُ لا يجدي نفعًا، بل قد يبدد صفاء الخلوة؛ مصداقًا لقول النبي :ﷺ «**إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**»[37].

قوله (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (11) اعتكف زكريا في محرابه . فكان نموذجا يصور لنا مظهر من مظاهر العبودية الصادقة والتبليغ الرباني؛ فقد آثر نبي الله زكريا عليه السلام الخلوة في محرابه، معتكفا فيه ، منقطعا عن مخالطة الناس ليتفرغ للصلاة والدعاء والابتهال. فقد بلغ من الكبر عتيًّا، فتلك هي عبادة أصحاب الأعذار ؛إذ لم تعد قواه تسعفه لخدمة الناس أو خوض غمار الجهاد في سبيل الله، فجعل من محرابه ميدانًا لجهاده، ومن مناجاته سلاحًا يتضرع به إلى مولاه؛ فأصحاب الأعذار هم الذين يرفع الله بهم البلاء، وببركة دعائهم يُنصر العباد وتُرحم البلاد. ولعلنا ننتصر بهم ، ولذلك قيل أنه (لولا شباب خشع وبهائم رتع وشيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا)[38] . وقال رسول الله ﷺ (**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟**) رواه البخاري، وفي رواية (**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**). رواه النسائي

ولم يكتفِ زكريا عليه السلام بصلاح نفسه، بل أتمّ رسالة البلا غ وواجب الدعوة؛ فحين مُنع لسانُه من الكلام آيةً من ربه، لم يعجز عن الهداية، فخرج إلى قومه وناجاهم بلغة الإشارة والإيماء، آمرًا إياهم بأعظم القربات :(أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) .لقد كان صمته ناطقًا، وإشارته بليغةً تغني عن فصيح العبارة؛ فـ"لسان الحال أبلغ من لسان المقال"، لا سيما في ميادين الطاعة والحضّ على العبادة. فمن أراد أن يستنهض همم الناس لطاعة الله، فليكن هو السبّاق إليها، حتى يقتدوا بفعله، ويستنّوا بسنته، فيفوز بأجرهم دون أن ينقص من أجورهم شيء.

ولذلك قال الإمام الشافعي (مَن وعظ أخاه بفعله كان هاديًا)وقال الحسن البصري «عِظِ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك»[39]. يقصد أن يكون همك وعظهم بالقدوة الحسنة . فذلك أبلغ من القول . فالقدوة الصالحة هي الدعوة الصامتة؛ فالناس يتأثرون بأفعال الداعي وسمته وهديه أكثر مما يتأثرون بمجرد أقواله[40] ، فإذا تطابق القول والعمل وقعت الموعظة في القلب موقع الغيث من الأرض العطشى[41] .

---

[37]) رواه البخاري ج5 ص 328 رقم 1383
[38]) قول مأثور رواه البيهقي ج3 ص 345 رقم 6183
[39]) الزهد ج1 ص 273
[40])علي بن نايف الشحود : الجامع في الرسائل الدعوية ج2 ص 296
[41]) القرافي : الذخيرة ج1 ص 105 ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية لعلي بن نايف الشحود 93

قوله (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (12) هذا النداء الربانيٌّ يفيض بالحزم والتكليف، حيث يُشير الإمام الرازي إلى تلازم "**اليد والقوة**"[42]؛ إذ تغدو "القوة" هنا رمزًا للمنهج القويم الذي يصوغ حركة الإنسان في دروب المجتمع. وقد أوجز سعيد بن جبير جوهر هذا الأمر بقوله: "**اعمل بما فيه من فرائضه**"[43]، ليرسم لنا مشهدًا حيًّا **لعزيمةٍ لا تلين**، وإرادةٍ تُقبل على أوامر السماء بجدٍّ وحرصٍ لا يعرفان التراخي أو التسويف، ولا ينكسران أمام وعورة الطريق أو مشقّة التكليف، كحال القويّ المتمكّن الذي تذلّ له الصعاب[44]. ويُضيف الرازي موضحًا أبعاد هذه القوة؛ **فهي اجتهادٌ دؤوب في صون الأمانة، وصلابةٌ في حمل لواء الدعوة، وترفّعٌ عن إظهار الوهن أو الاستكانة**[45].

ومن زاويةٍ تأمليةٍ بديعة، يُبيّن الشيخ الشعراوي أن **القوة هي تلك الطاقة الفاعلة** التي تُسيّر دولاب الحياة بين حركةٍ وسكون؛ فالكتاب يحمل بين دفتيه أوامر بالخير ونواهيَ عن الشر. وحين يدعوك المنهج إلى فضيلةٍ تقاعستَ عنها، فأنت بحاجةٍ إلى "**قوة دفعٍ**" تبعث فيك الهمّة وتُحرّكك نحوها، وحين يزجرك عن رذيلةٍ انغمستَ فيها، فأنت أحوج ما تكون إلى "**قوة كبحٍ**" تكفّ جماحك وتُسكّن اندفاعك. وهكذا يغدو المنهج الإلهي هو تلك القوة المزدوجة التي تستنهضك للخير وأنت ساكن، وتكفّك عن الشر وأنت متحرك[46]. لقد أراد الله ليحيى عليه السلام أن يكون تجسيدًا حيًّا لهذا المنهج الرباني في واقع الناس، وفي توجيه هذا الخطاب الجليل إليه دلالةٌ بالغة على ما بلغه يحيى من نضجٍ وكمالٍ أهّلاه لحمل هذه الأمانة العظيمة ، وهو لا يزال في ريعان الصبا[47].

وقوله (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) **إشارةٌ ربانيةٌ عميقة** للاهتمام بالصبية وتربيتهم علي إدارة شئون الحكم منذ الصغر ، فمعلوم أن "بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ كُلَّمَا ذَهَبَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ " [48]، وهو ما يعني من باب أولى تربيتهم على إدارة شئون أنفسهم وأهلهم وأصحابهم ، ما يعني كذلك تربيتهم على تزكية أنفسهم من باب أولى وأولى ؛ إذ يجلّي الإمام الطبري معناها بقوله" :**وأعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه، قبل بلوغه أسنان الرجال**."[49]

ويتجلى هذا المنهج التربوي النبوي في شهادة الصحابي الجليل جندب بن عبد الله رضي الله عنه حين قال" :كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، **فَيُعَلِّمُنَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ**، ثُمَّ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تُعَلِّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ"[50].

ومن هذا النبع الصافي ندرك قاعدةً راسخةً في بناء الإنسان؛ وهي أن التزكية تسبق التحلية، وأن العلم يُمهّد للعمل، وأن التربية وتهيئة النفوس مقدّمةٌ على التكليف؛ فبغرس الإيمان أولاً تُزهر القلوب، وتتهيأ لاستقبال نور الوحي والعمل به عن بصيرةٍ ويقين.

---

[42]) تفسير الرازي ج13 ص 170
43) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 251 رقم 14117
[44] التحرير والتنوير ج8 ص 283
[45]) تفسير الرازي ج13 ص 170
[46]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5514
[47]) تفسير الرازي ج10 ص 276
[48]) رواه ابن ماجة ج8 ص 408 رقم 2862 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 144
[49]) تفسير الطبري ج18 ص 155
[50]) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج3 ص 120 رقم 5075 ورواه ابن ماجة ج1 ص 70 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1ص16 رقم 52

قوله (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) (13) صفة ليحيى ، أن أتاه الله الحنان اللدني (تعطفاً من ربه عليه) فهو مجبول على الحنان دون تكلف منه ، وهذا منة من الله على والديه ، أن يرزقهما ولدا يحن عليهما في كبرهما ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ" وَحَنَانًا" قَالَ: لا أدري مَا هُوَ، إلا أني أظنه تعطف الله عَلَى خلقه بالرحمة"[51].

وقوله (زكاة) أي طاهرا من الآثام ، فلم يعص الله قط .

وقوله (وكان تقيا) أي مجتنبا لنواهي الله تعالى ، وذلك يرادف المعنى المذكور في قوله (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) (آل عمران/39) ، فلا هم له في معصية .

في رحاب الآيات البينات، ؛ إذ يقول الحق تبارك وتعالى :"وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا"] مريم: 13.[

وفي قوله (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) (13) تتجلى عظمة العطاء الإلهي في وصف نبي الله يحيى عليه السلام ، فقد أسبغ الله على نبيه يحيى عليه السلام رداءً من الرحمة الفطرية والحنان اللدني؛ فجبل فؤاده على الرأفة والرفق سجيةً وطبعاً بلا تكلف[52]، وجعله قرة عين لوالديه، وبلسماً يفيض عليهما بالبر والإحسان في كبرهما وضعفهما.

وقد وقف حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما متأملاً جلال هذه اللفظة، فقال في تفسير قوله تعالى "وَحَنَانًا" (لا أدري ما هو، إلا أني أظنه تعطف الله على خلقه بالرحمة)[53].. وهذا يلتقي مع المعنى الجليل الذي قرره النبي ﷺ في حديث الراحمين"**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"[54].

ثم يكتمل العقد النوراني في وصفه بقوله تعالى :"وَزَكَاةً"؛ أي طهارةً ونقاءً من أدران الذنوب والآثام. فقد عصمه الله وطهر سريرته وعلانيته، فلم يدنس صحيفته بمعصية قط، ولم يهمّ بخطيئة. قال مجاهد وقتادة في تفسير" وَزَكَاةً" أي: عملاً صالحاً زكياً، وطهارةً من الذنوب".

ويُتوَّج هذا البناء الأخلاقي الرفيع بقوله سبحانه :(وَكَانَ تَقِيًّا)؛ أي متوقياً سخط الله باجتناب نواهيه والمسارعة إلى مراضيه، مما يجعل قلبه معلقاً بالملأ الأعلى، لا همّ له في شهوة ولا ميل إلى معصية. وهذا المعنى يشد أزره ويفسره قوله تعالى في سورة آل عمران في البشارة به :(**وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**) (آل عمران: 39)؛ حيث فسر أهل العلم «الحصور» بأنه الذي حبس نفسه عن الشهوات والآثام كفّاً وعفةً وتقوى. وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال في شأن يحيى بن زكريا :"**ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو همَّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريا** "[55].وهكذا اجتمعت في شخصه الكريم أسمى الخصال :رحمةٌ تفيض على الخلق، وطهارةٌ تزين النفس، وتقوى تعصم الجوارح.

قوله (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا)(14) يستبين أن أول من يستفيد بحنان الابن هما والديهم ، وهما أول من يتلقى منه المعاملة الحسنة ، فحسن الأخلاق والطباع يؤدي إلى إحسان العمل .

---

51) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 251
52) الدر المنثور ج6 ص 442
53) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 251 ، رواه الطبري والبيهقي
54) رواه أبو داود والترمذي.
55) رواه أحمد ج5 ص 212 رقم 2180 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 483

فبرّ الوالدين، هو أول ثمرةٍ تُجنى من شجرة الأخلاق القويمة، وأصدق مقياسٍ لصفاء الفطرة وسلامة الطوية ؛ومن هنا يرسم لنا القرآن منهجًا ربانيًّا يربط بين حُسن الخُلق، ولين الجانب مع الوالدين، والبعد عن الكِبر والعصيان.

فإذا كانا الوالدان من أهل الصلاح والتقوى، فإنه يجتمع لهما شرف الأبوّة وفضل الاستقامة. فمتى طابت سريرة المرء وزكت طباعه، انعكس ذلك إحسانًا في القول والعمل، وبرًّا يغمر به والديه، مصداقًا لقوله ﷺ (**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ**) [56]. قال الإمام القرطبي في هذه الآية (وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح)[57] أي كان محسنًا إليهما، متواضعًا لهما، غير متكبر ولا عاصٍ لأمرهما

وعلى النقيض من ذلك، فإنّ من جفا والديه، وحرمهما عطفه وبِرّه، فلن يُرجى منه خيرٌ لسائر الناس؛ إذ كيف يُحسن إلى البعيد من عقّ القريب، وكيف يفي للغرباء من تنكّر لأصحاب الفضل الأول؟! إنّ من يخرج عن دائرة البرّ يرتكس في حمأة الكِبر والتمرد، فيغدو» جَبَّارًا عَصِيًّا ؛ والجبار هو المتعالي المتكبر الذي يأنف من الانقياد للحق، والعصيّ هو المتمادي في مخالفة أمر الله تعالى وأمر والديه.

ففي قوله (وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) قال الألوسي (**والمراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة**)[58] ، وقد ربط الحافظ ابن كثير بين طاعة الله وطاعة الوالدين واجتناب معصيتهما بقوله "لما أثبت الله تعالى له تمام الطاعة لخالقه، وما أودعه في فطرته من رحمةٍ وزكاةٍ وتقى، أتبع ذلك بالإشادة ببرّه لوالديه وحسن طاعته لهما؛ فقد نأى بنفسه عن كل صور العقوق، قولاً وفعلاً، وامتثالاً لأمرهما واجتناباً لنهيهما."[59].

ومن تأمل في دلالات اللغة وربطها بالمعاني الشرعية، أدرك أن لفظ «الجبّار» في حق المخلوقين يحمل معنى الطغيان والانفلات من الضوابط؛ فالإنسان المتجبر على والديه، المتفلت من قيود الأدب والشرع، يُشبه في اندفاعه وأذاه العَجْمَاء— أي البهيمة التي لا تنطق ولا تعقل— حين تنفلت فلا يملك الناس ردّها أو ضبط سلوكها، فيكون ضررها مُتوقَّعًا، وتصرفها غير مأمون[60]. وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ (**الْعَجْمَاءُ جُرْحُهَا جُبَارٌ، وَالْبِئْرُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدِنُ جُبَارٌ**] متفق عليه[61]. ومعنى «جُبَار» هنا: أي هَدَرٌ لا دية فيه ولا تعويض عمّا تُصيبه البهيمة إذا انفلتت بغير تفريطٍ من صاحبها[62]. وهكذا حال العاقّ المتجبر؛ فإنه بانفلاته من زمام العقل والشرع، يُلقي بنفسه في مهاوي الهلاك والضياع، ويُصبح أذاه للناس هدرًا ووبالًا عليه في الدنيا والآخرة، إذ لا يردعه وازعٌ من دين، ولا يضبطه رادعٌ من مروءة أو حياء.

في قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، لفتة ربانية إلى ثلاث محطات في مسيرة الإنسان خالقه؛ يوم يبصر النور، ويوم يغادر الحياة، ويوم يُنشر حيًّا بين يدي الله بعد الممات. وقد أشار العلامة ابن عاشور إلى بديع هذا النظم بقوله: «فالمعنى: أن إكرام الله متمكنٌ من أحواله الثلاثة المذكورة، وهذه الأحوال الثلاثة أحوالُ ابتداء أطوار؛ طورُ الورود على الدنيا، وطورُ الارتحال عنها، وطورُ الورود على الآخرة، وهذا كنايةٌ على أنه بمحلّ العناية الإلهية في هذه الأحوال) [63].

---

56) رواه الترمذي
57) تفسير القرطبي ج11 ص 88
58) تفسير الألوسي ج11 ص 461
59) تفسير ابن كثير ج5 ص 217
60) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 405
61) رواه البخاري ج21 ص 226 رقم 6402
62) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 297
63) التحرير والتنوير ج16 ص 19

إن كل طورٍ من هذه الأطوار ينفرد بسماته ورهبته، ويسبقه سكون العدم والموت، ليُفضي الطور الأخير إلى أبدية الخلود. ففي لحظة الولادة، يستهلّ البشر الحياة بصراخٍ يعلن مشقّتها، غير أن عناية الله تحفّ أنبياءه فتعصمهم من نزغ الشيطان عند قدومهم. وفي ساعة الرحيل، تنهمر دموع الأحبّة حزنًا على الفراق، فيتنزّل السلام الإلهي سكينةً على روح النبي، ورباطًا من الصبر على قلوب ذويه. أما في يوم البعث، فتُشرق شمس الحياة الأبدية الآمنة لأهل النعيم، في مقابل شقاء الكافر الذي يتقلّب في عذابٍ لا يموت فيه فيستريح، ولا يحيا فيه حياةً هنيئة.

وقد استنبط الإمام أبو حيان من قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ إشارةً لطيفةً إلى منزلة الشهادة، إذ قال: «تنبيهٌ على كونه من الشهداء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾»[64].

وهكذا يُكتب لنبي الله يحيى عليه السلام خلودُ النعيم في جنان ربه، وتتضاءل أمام هذه الحياة السرمدية كلُّ سنين عمره الدنيوي منذ مهده وحتى لحده؛ فقد قُتل وهو في ريعان شبابه، ليبقى في الآخرة شابًّا خالدًا، يرتع في رياض الجنة حيث شاء، محفوفًا بسلام الله وأمانه.

---

[64]) تفسير البحر المحيط ج8ص8